[15]

رسالةٌ لجيل التَّمكين في أرض الحرمين2

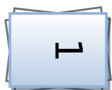
(13 صفر 1433هـ)

الحمد الله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام على نبينا محمـد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

فلقد مرّ إبراهيم -عليه السلام- بـابتلاءين عظيمين في نفسـه، وفي عرضه، كما ذكرنا في المقال الأول.

ثم تواصل الابتلاء عليـه، وبعد أن أخـذت سـارة الجارية هـاجر، وهبتها لإبراهيم بعد فترة من الزمن، وحينها لم تكن سـارة تنجب، فأخذها إبراهيم واستبضعها؛ فأنجبت له إسـماعيل -عليه السـلام-، ففرح به إبـراهيم فرحًا شـديدًا، ولكن بطبيعة الغـيرة عند النسـاء، غارة سارة من جاريتها ومن ابنها، فـأمر الله سـبحانه إبـراهيم أن يهـاجر هو وزوجه هـاجر ومعها ابنها إسـماعيل، فهـاجر من الـبيت ومن البلد كلّه إلى وادٍ غير ذي زرع بمكـة، لا فيه شـجر، ولا بشـر، ولا ماء، فذهب بها وبابنها، وعندما وصل إلى ذلك الوادي تركهمـا، ووضع عندهما قربة ماء، وجراب فيه شيء من التمـر، ثم انصـرف فجاءته بقلب الأم التي ترى مصيرها ومصير فلـذة كبـدها المـوت، تقول له: يا إبراهيم لمن تتركنا، فلا يرد عليها، فتكرر السـؤال ولا تسـمع جوابًـا، وهي تعلم يقينًا أن إبــراهيم لم يخرجها إلى هــذا المكان من أجل زوجته الـتي غـارت منهـا، فـأخلاق إبـراهيم الـتي عرفتها منه، ودينه الـذي آمنت به لا يجعله يفكر أو يهمّ بمثل هـذا، ولكن الأمر أعظم من ذلك، وعندما كررت عليه الثالثة، قـالت: الله آمرك؟، قال: نعم، قالت -عندما علمت أن إبراهيم مأمور من ربه-، قـالت كلمة عظيمة يجب أن تفقهها كل امـرأة عاقلة تـؤمن بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًـا؛ وهو قولها: (إذًا لا يضـيعنا)، وهـذا هو حقيقة التعلق بالله وبالإيمـان به أنه هو الرزاق والحافظ والعون سبحانه وليس الزوج، فإذا فقهت المــرأة المسلمة هذه المسـألة العظيمة كـانت هي العـون لزوجها بعد الله سبحانه وتعالى في فعل الخيرات.

فالـــذي جعل هـــاجر تصل إلى هـــذا الإيمـــان العميق والفهم السـليم؛ هو توفيق الله لها بسـبب ما تـربّتْ عليه في بيت النبـوّة بيت إبـراهيم -عليه السـلام- لا ما تـربّتْ عليه في قصر الطـاغوت، فكلما كان البيت محفوفًا بالإيمـان وكـان الرجل متمسـكًا بالـدين؛ كـان أهله أقـرب إلى عونه بعد الله في حمل تكـاليف هـذا الـدين، وهذا ما يحتاجه كثير من الرجـال في هـذا الزمـان، نسـاء كهـاجر -عليها السـلام- لا تثبّطه عن أوامر الله وخاصـةً الجهـاد في سـبيل الله، بل تزيده إيمانًـا وطمأنينـة، كما هو صـنيع هـاجر مع إبـراهيم بقولها: (إذًا لا يضيعنا).



وللقارئ أن يتأمّل كيف كان حال إبراهيم عندما طُلب منه أن ينفذ الأمر الإلهي، بإخراج ابنه وأم ابنه ووضعهما في مكانٍ الغالب عليه الهلكة، فهل تباطأ؟، أو تأوّل؟، أو ذهب يطلب الأعذار الشرعية؟، أو رجّح عاطفة الأبوّة التي كان يتمناها؟، لا؛ بل استجاب لأمر الله الذي قدر الأقدار على جميع خلقه، ولم يُثنه حبّ النساء، ولا حب الأبناء.

وعندما انقاد إبراهيم لأمر الله؛ أكرمه الله وأكرم ابنه وأم ابنه في تلك القفار الخاوية، فقد تركهما هناك ونفد عليهما التمر والماء، وجفّ على هاجر حليبها، وذهبت تبذل السبب في إيجاد الماء والطعام؛ لتسكت جوع ابنها، وكانت تهرول بين الصفا والمروة، جبلين تنظر من أعلاهما هل من معين، وعند الشوط السابع جاءت الكرامة من الله {خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين} وإذا بجبريل قد ضرب الأرض بجناحه، فإذا بالماء ينبع من تحت قدم إسماعيل فجأة، فإذا بأمه تزمّه زمًّا فسمي بزمزم، وكان ميزة زمزم أنه كما قال صلى الله عليه وسلم: "زمزم لما شرب له" [رواه أحمد]، فمن شربه مريضًا شفاه الله، ومن شربه جائعًا أشبعه الله، ومن شربه ظامئًا أرواه الله، وكان هذا الابتلاء لإبراهيم مع ابنه في الصغر، وعندما كبر إسماعيل وبلغ معه السعي وكان تعلق إبراهيم به أكبر، أراد الله أن يتخذ إبراهيم خليلاً، والخلة هي أعلى مقامات المحبة، وهذه المحبة لن يصل إليها أحد حتى يخلو قلبه من كل أحد إلا الله، ولم يصل إلى هذا المقام سوى اثنان من العالمين إبراهيم -عليه السلام- وابنه محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى عن إبراهيم: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [النساء]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً" [رواه مسلم]، فكان الابتلاء لإسماعيل من أبيه -عليهما السلام- هو الذبح، وبيده، كما قال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} [الصافات].

لقد تربّى إسماعيل -عليه السلام- في حجر أمه المؤمنة هاجر -عليها السلام-، كما تربّت هي في بيت زوجها إبراهيم على التوحيد، فكان لهذا وذاك أثرٌ إيجابيٌّ، ظهر في سلوك إسماعيل {قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}، وقام الخليل بعدما أسلما لأمر الله؛ طرحه على الأرض لينفذ فيه ابتلاء الله له؛ فسلب الله من السكين صفة القطع، فلم تقطع، وفدى الله إسماعيل بكبش من السماء تكريمًا له وسُنّة لمن بعده يتقرب بها إلى الله تعالى كل سنة.

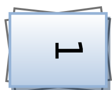
روى الإمام البخاري في صحيحه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: (أن إبراهيم عليه السلام جاء بأم إسماعيل وابنها إسماعيل -عليه السلام-، وهي ترضعه، فوضعها عند البيت، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفا منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، وقالت: يا إبراهيم؛ أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء، قالت ذلك ثلاث مرات، وجعل لا يلتفت، فقالت له: أالله أمرك بهذا؟، قال: نعم، قالت: نعم إذًا لا يضيعنا، ثم رجعت، وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند البيت استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يده وقال: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [إبراهيم]، فجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب مرّة من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجاع، وجعلت تنظر إليه يلتوي، أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها وسعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فذلك سعي الناس بينهما".

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صه، تريد نفسها، ثم سمعت أيضًا، فسمعت، فقال: قد أسمعت إن كان عندك غراث، فإذا هي بالملَك عند موضع زمزم يبحث بعقبة، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه، وجعلت تغرف الماء في سقائها وهي تقوم بقدر ما تغرف، قال ابن عباس: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا"، فشربت وأرضعت ولدها، وقال لها الملك: لا تخافي من الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله).

يُستفاد مما ذكر:

أن المؤمن الموحد قد يبتلى بالتكاليف الشرعية بما لا تهوى نفسه، فإذا عظم الإيمان أصبح هذا التكليف محبوبًا إلى النفس؛ لأنه أمر من الله، ومهما كان التكليف على النفس البشرية فيه شيء من المشقة ولكنه في طور الاستطاعة، وما يهونه على النفس ويجعله محبوبًا إليها هو الإيمان بالله وما أعدّه الله من أجر على ذلك العمل.

أن المؤمن إذا صبر على البلاء لله سبحانه وفي الله؛ كانت الكرامة والفرج نصيبه بإذن الله ومسليّة له في بلائه، وقد يكون



الفرج في بعض الأحيان؛ هو القتل أي الشهادة في سبيل الله أو الأسر من أجل لا إله إلا الله، ولا يعقل ذلك إلا من عرف الله وتعامله مع أوليائه، وخاصة في مثل هذا الزمان الذي اشتدت فيه الغربة وأصبح الموحد غريبًا في كل مكان إلا في أسره أو ثغره مع إخوانه المجاهدين، فإنه يعيش لذّة الإيمان وحقيقة الدين.

ومما يستفاد؛ فائدة عظيمة لأنصار الجهاد الذين ضعفوا عن واجب الإيواء والنصرة للمجاهدين؛ خوفًا على نسائهم وأطفالهم من القصف أو الأسر، وهو حال هاجر في تلك الأرض الخاوية، وعلى ضعفها وضعف ابنها الرضيع؛ لم يمنعها ولم يمنع زوجها إبراهيم -عليه السلام- أن يتركهم على هذه الحال التي يغلب عليها الهلكة من أن يستجيبا لأمر الله، ويقوم بما أمره الله، ولم يخف إبراهيم ولا هاجر من سباع تعدوا عليهم تأكلهم، أو طيور جارحة تخطف صغيرهم، أو جوع وعطش يهلكهم؛ لأن الآمر هو الله وهو العليم الحكيم الرزاق ذو القوة المتين، ولم تمنع إبراهيم العاطفة والحرص والخوف على الزوجة وابنه من أداء أمر الله؛ فلا بد أن نؤدي ما أمر الله به من واجب الإيواء والنصرة، ولو غلب على ظنِّنا الهلكة من قصف أو أسر؛ لأن الأقدار مقدرة من عند الله، فلا يكون الخوف من القدر مانعًا من أداء الواجبات.

اللهم إنا نسألك أن ترحم ضعفنا وأن تآنس وحشتنا وغربتنا وأن تجعلنا ممن يألفون ويؤلفون.

اللهم وفق رجالنا ونساءنا للإيمان، اللهم اجعل نساءنا معينات لنا على طاعتك، وأعنهم اللهم على فعل أوامرك واحفظ اللهم عليهم دينهم وأعراضهم.

والحمد الله رب العالمين.